(٥) بنو تميم في سماء العروبة

للأستاذ عبد العزيز مزروع
المدرس بالقبة الثانوية

(١) المصارعات اللغوية (٢) تطبيق قوانينها على قريش والعرب (٣) اللغة الألمانية والسويسرية (٤) اللغة الفرنسية والسلتية فى مقاطعة بريتون بفرنسا (٥) اللسان السلتى والانجليزى فى أيرلندة (٦) كيف استولى القرشيون على مفاتيح الكعبة ؟

---

(١) جمعتنى المصادفات السعيدة بكبير من أصدقائى الدكاترة ، فقال لى ... اطلعت على كلماتك فى (لهجة بنى تميم) ومحاولتك السمو بهم على قريش ولهجتها ونسيت أن القرآن نزل بها ، لأنها كانت قد امتصت اللهجات الأخرى قبل ظهور الاسلام ، فإذا سمعت أن لهجة تميم كذا فاعلم أن الحق فى هذا أنها ليست لهجة تميم بل لهجة قريش فى لسان تميم وديارهم ، أما لهجتها الأصلية فقد اندثرت نهائيا ! ! فما كتبته فى عدد أبريل سنة ١٩٤٧ وما بعده من موازنتك بين لهجة تميم وغيرها ونسبة هذه اللهجة إليهم فيه مبالغة ! !

وكيف تنفس على قريش منزلتها الدينية مع أن العرب هى التى أسندت إليها هذا الشرف طواعية ، لما رأت من منزلتها الاجتماعية والأدبية والاقتصادية !

فهذا يا (مزروع) نوع آخر من تعصبك لقومك التميميين !!

ردى

فشكرت للبحاثة تفضله بالاطلاع على كلماتى ، وأكدت له أن ما فيها نتاج مباحث واصلت فيها سواد الليل ببياض النهار سنين طويلة ، وطلبت إليه أن يسمع الرد الثانى المفصل فى عدد تال وهأنذا أفى بالعهد، إن العهد كان مسئولا .

قرر البحثة فى تاريخ اللغات أن من عوامل الصراع اللغوى تجاور شعبين مختلفى اللغة ، وفى هذه الحالة لا بد أن يتغلب الشعب القوى على الضعيف ، سواء أكانت قوة العدد ، أم قوة الحضارة ، أم النفوذ والجاه ، أم البأس والبطش ؛ ولا يتم النصر غالبا إلا بعد أمد طويل يصل أحيانا إلى أربعة قرون وهذا فى الفتوح الحربية ، أما فى غيرها فهو يمتد إلى أكثر قد يتطاول إلى عشرة قرون .

وقريش كانت أقل عددا من تميم ، ولكنها عرفت كيف تستغل فرصة واتتها فسعت للتغلب على منافستها الكبيرة (تميم) أما اليمن فقد كان القضاء عليها قد تم من قبل بأمد بعيد .

ولم تتغلب (قريش) على من سواها حربيا لأنهم كانوا أميل القبائل العربية إلى المسالمة لانصرافهم إلى التجارة ورخاوة عيشهم ، فلم تكن الفتوح أيضا هى السبب فى تغلب لهجتهم على من دونهم ، وهذا يستلزم ألا تقل مدة السيطرة عن ستة قرون على أقل تقدير حتى تستطيع لهجتهم أن تمتص لهجات القبائل الأخرى .

وقريش بالإجماع لم تكن لها السيطرة على القبائل العربية إلا قرنين قبل الإسلام ، يضم إلى هذا أن الباحثين قرروا لتغلب اللغة نفسه على أخرى بدون حرب أن يتساوى الشعبان أو القبيلتان فى الهمجية أو المدنية ولكن يزيد تعداد أحدهما عن تعداد الآخر زيادة كبرى .

و (قريش) لم تفز بتحقق شرط واحد من هذه الشروط :

فهى لم تتغلب على إحدى القبائل العربية حربيا فضلا عن بقية القبائل

ولم يزد تعدادها على تعداد تميم أو ربيعة أو قيس عيلان بل قل بمراحل ، وهذا كاف لنقض دعوى القائلين بفناء اللهجات العربية كلها فى لهجة قريش !

وقد يحلو لمعترض أن يقول :

كان مقتضى هذا ألا تكون اللهجة السائدة عند ظهور الاسلام (لهجتها) بل لهجة تميم مثلا أو ربيعة ؛ وألا يقول العلماء : إن القرآن نزل بلغتها !!

والواقع يخالف هذين !!

والرد سهل ؛ لأن لهجة (بنى فهر) قد استندت إلى أساس متين من اللهجات المضرية لايقل عن ٣٠٪ من اللهجة المنسوبة إليها ؛ ولأن قريشا كان لها منزلة أدبية واجتماعية واقتصادية لا بأس بها ، وفى خلال القرنين اللذين رسخ فيهما نفوذ قريش وضعت من المصطلحات التجارية والدينية مفردات وتراكيب بلغت نسبتها نحو ٣٠٪ أيضا وضمت إلى هذين العددين نحو ٢٠ ٪ من لهجة (قومى بنى تميم) غرماء قريش الذين كانوا المشرفين على مناسك الحج قبلها بعددهم وبأسهم وقضاتهم وحكائهم.

ثم ضمت اليها ١٠ ٪ أيضا مما اقتبسوه من لهجات القبائل الأخرى مما خف وقعه ، ولان لفظه ، وسهل أسلوبه !! وبذلك كملت تلك اللهجة القرشية

وزاد من قيمة الـ ٣٠ ٪ التى ابتكرها القرشيون فوق ما ورثوه عن آبائهم المضريين أنهم أشرفوا على عمليتى الاختيار والمزج ، فوق ماقدمنا من نفوذهم ، وفوق أن حسن طالعهم شرفهم بسيد الخلق ، وأن الخلفاء والولاة والقواد الأمويين والعباسيين كانوا من قريش ، ودونت اللغة فى عهدهم وسجلت المآثر بإشارتهم !!

فليس صحيحا بعد هذا ماظنه بعض العصريين من ذوبان اللهجات العربية كلها فى اللهجة القرشية ، إذ هذه الكلمة تجن على الحق والتاريخ ومجد أرومتى .

(٣) ولم يكن الفرق بين لهجة وأخرى إلا مانشعر به من الفرق بين لغة المصريين فى مصر العليا وأسفل الأرض ـ الوجه البحرى ـ أوعلى الأكثر بين لهجة المصريين ولهجة الشوام لا الذى تعرفه بين اللغة الألمانية والسويسرية حيث تتكلم بالألمانية من أهل (سويسرة) نحو ٧٠ ٪ على الرغم من الصراع الدائم بين الألمانية والفرنسية فى سويسرا ، ذاك الصراع الذى بدأ من عهد سحيق

بين الفرنسية والسلتية :

ومثل ذلك الصراع بين اللغة الفرنسية واللسان السلتى الذى يتفاهم به سكان مقاطعة (البريتون) غرب فرنسا ، فلا يزال كثير من شيوخ هذه المقاطعة الآن يتحادثون به .

بين السلتية والانجليزية :

بل إن دهشتنا لتظهر أوضح إذا علمنا أن هذه اللهجة — السلتية — ما برحت لغة تفاهم بين العامة من الأيرلنديين عصرنا هذا مع أن تغلب الانجليز عليها مضى عليه نحو تسعة قرون على الرغم من الحروب المستعرة بين الفريقين ، والقلة المتواضعة التى عليها (الأيرلنديون)

(٦) كيف استولى القرشيون على مناسك الحج :

وأما أن مناسك الحج أسندت الى قريش طواعية واختيارا فهذا أيضا ليس بصحيح وإلى القراء بيان ذلك :

من يراجع (مجمع الأمثال للميدانى (ص ١٩٨ ح ١) يطلع على المثل : (أحمق من أبى غبشان) وكان من حديثه أن (خزاعة) حدث فيها وباء الرعاف بمكة — وكانوا ولاة الكعبة — فخرجوا منها ونزلوا (الظهران) فرفع عنهم الوباء ، وكان منهم رجل يقال له (حليل بن حبشية) وكان زعيم خدم البيت الحرام ، وله بنت يقال لها (حبى) وهى امرأة قصى بن كلاب ، فمات حليل ، وكان أوصى ابنته (حبى) بالاشراف على (الحجابة) وأشرك معها (أبا غبشان) الملكانى ، فلما رأى قصى أن خليلامات ، وبنوه غيب ، والمفتاح فى يد امرأته طلب إليها أن تدفع المفتاح إلى ابنها (عبد الدار بن قصى) وحمل بنيه على ذلك فقال : (اطلبوا إلى أمكم حجابة جدكم) — وهو حليل — ولم يزل بها حتى سلمت له بذلك وقالت : كيف أصنع بأبى غبشان !! وهو وصى معى !! فقال قصى : أنا أكفيك أمره !!

تدبير المؤامرة :

فما زال يتحين الفرص حتى اجتمع بأبى غبشان فى شرب بالطائف ، (فخدعه) قصى عن (مفاتيح الكعبة) بان أسكره !! ثم اشترى المفاتيح منه بزق خمر !! وهو فى سكرته !! وأشهد عليه !! ، ودفع المفتاح إلى ابنه عبد الدار بن قصى !! وطيره إلى مكة !! فلما أشرف عبد الدار على دور مكة رفع عقيرته قائلا :

معاشر قريش . هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل ، قد ردها الله عليكم (من غير غدر ولا ظلم) !!

بعد أن راحت السكرة وجاءت الفكرة :

بعدها أفاق (أبو غبشان) من سكره أندم من الكسعى !! فضرب الناس به المثل (أحمق من أبى غبشان) و (أندم من أبى غبشان) و (أخسر صفقة من أبى غبشان) فذهبت الكلمات كلها أمثالا !! وأكثر الشعراء فيه القول ، فقال بعضهم :

إذا فخرت (خزاعة) من قديم ... وجدنا فخرها شرب الخمور
وبيعا (كعبة الرحمن) حمقا ... بزق !! بئس مفتخر الفخور !!

وقال آخر :

(أبو غبشان) أظلم (من قصى) ... وأظلم من (بنى فهر) (خزاعه)
فلا تلحوا قصيا فى ثراه ... ولوموا شيخكم أن كان باعه !!

وللتأكد من هذا أرجو الرجوع إلى الأمهات من الكتب كالقاموس المحيط ، ونهاية الأرب والأغانى . . فذلك أمر يعرفه المؤرخون والأدباء جيدا.

وفى هذا مايدل على أن العرب لم يكن لها يد فى تولى قريش أمر الكعبة ولم يتمكن قصى من مفاتيح الكعبة إلا بهذه السبيل !! ، وكان القرشيون قبل ذلك أولى تجارة بين اليمن والشام ، وذوى مركز مالى ؛ فضم الشرف إليهم بسدانة البيت ميزهم ميزة أخرى ، فأخذوا يعضون عليها بالنواجذ

وجادوا بدمائهم فى سبيل المحافظة عليها . وما زالوا على ذلك حتى أشرق عليهم سيد الرسل بعد أن ثبتت أقدامهم ، وطار صيتهم ، وأثروا إثراء فاحشا وتزلف اليهم كثير من القبائل ، فإذا ضم إلى هذا قلة تلك المدة بالنسبة لما قدمنا ، تبين لنا مبلغ المبالغة فى مركز اللهجة القرشية .

وأرجو بعد هذا أن أكون قد شفيت صدر الحق ، وأوضحت حقيقة طمسها كر الغداة ومر العشى . وأعطيت مالقيصر لقيصر وما لله لله ، فى هذا المجال الذى زلقت فيه مباحث المستشرقين وبعض الشرقيين من علمائنا قديما وحديثا ، وبين كل أولئك يظهر (فضل قومى) وجهادهم فى رفع شأن العرب ولغتهم من قبل أن تخلق قريش . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

عبد العزيز صروع الازهرى
المدرس بالقبة الثانوية